العمل الفنى وصحة منطلقاته ، ولم يتردد ابن طباطبا فى أن يفرض على الشاعر ضرورة مداومة النظر فى الأشعار القديمة ، لتلصق معانيها بفهمه ، وترسخ أصولها فى قلبه ، وتصير مواد لطبعه ، ويذوب لسانه بألفاظها ، فإذا جاش فكره بالشعر أدى إلى نتائج ما استفاده مما نظر فيه . فكانت هذه النتيجة كالطيب تركب من أخلاط كثيرة فيستغرب عيانه ويغمض مستنبطه »[1] .

ومن هنا ينتفى منطق الاستثناء لأىٍّ من الشعراء من واقع الصدور عن هذه القاعدة ، بل إن الشاعر العظيم يظل خاضعا للتراث ، دون أن يُقع ضحية الاستعباد له ، أو لجانب منه ، إذ يتحوَّل الواقع التراثى إلى جزء من كيان الشاعر ، له أن يفيد منه ، وعليه أن يزاوج بين تجاربه وتجارب أسلافه ومعاصريه ، لتصبح الثقافة لديه عامل إخصاب ، يزيد من عمق التجربة ولا تتحول إلى عامل إفساد أو عقم ، أو قيد خارجى يتحكم فيه ، ويسيطر عليه ، ويكبل حركته ، وربما أسقط ملكته تماماً فبدا صورة ممسوخة أو مشوهة لا تستحق التوقف بحال .

ومن هنا لا يتنافى قيام الصورة المشرقة للشاعر المبدع مع كونه شاعراً تراثياً ؛ الأمر الذى استوقف (حازم القرطاجنى) فى حديثه عما يمكن أن يضيفه الشاعر من تلك المعانى التى قلَّتْ فى أنفسها ، فما كان بهذه الصفة فلا تسامح فى التعرض إلى شئ منه إلا بشروط : منها أن يركب الشاعر على المعنى معنىً آخر ، ومنها أن يزيد عليه زيادةً حسنة ، ومنها أن ينقله من موضع أحق به من الموضع الذى هو فيه[2] ... إلخ .

ومن هنا تنبه حازم إلى جوهر الحس التراثى وتوخى الدقة فى عرض مادته أو الإضافة إليها ، أو التجديد فى معالجتها .. ولعله بدا بذلك قريبا مما أسماه القدماء بـ « تضمين المعانى » من حِكَم أو أمثال أو شعر ، أو غير ذلك من مأثورات تزيد فن الشاعر غنىً وثراءً ، أو هو الإرهاصات المبكرة إلى إشكالية « التناص » الماثل فى قدرة النص على اصطناع مزيج خاص من خلال استيعابه لنصوص سلفية سابقة عليه أو معاصرة له .

ومعنى هذا - فى مجمله - أن للشاعر أن يأتى بالمعنى الجديد المبتكر ، وأن يحتفظ

---

(١) عيار الشعر ٨٧ .

(٢) منهاج البلغاء ١٩٢ .